تربية الشخصية فى مرحلة البلوغ (١)

بقلم محمد خلف الله
عضو بعثة دار العلوم بانجلترة

٢

وأما المشكلة الثالثة من مشكلات البلوغ فهى معضلة الجنس ، وقد يظن بعض الناس أن الكلام فيها سابق لأوانه ، وأن مصر لم تواجه فى هذا الباب ما واجهته الأمم الأخرى من المشكلات ، وأن لنا من تقاليدنا الإسلامية ما يكفل لنا السلامة من هذه الناحية . والحق أن المعضلة قائمة عندنا فى مصر لا يغطيها إلا التحرج عن الكلام فيها ، والتربية التى نتبعها فى هذا الموضوع لا تتفق مع روح الدين وأسراره ، وطلاب المدارس عندنا عرضة لأخطار جنسية كثيرة يعرفها كل من اتصل بالتعليم فى المدارس المصرية للبنين أو البنات .

لهذا كان لزاماً علينا أن ندرس غريزة الجنس ومظاهرها النفسانية فى مرحلة البلوغ لنعرف السبيل إلى توجيهها أو ضبطها وتخليص الشباب من أمراضها ،

أما كون غريزة الجنس من أهم العوامل فى حياة الطفل وفى نموه النفسانى والجثمانى ، وكون تجاهل داعيها كتجاهل داعى أى غريزة أساسية فى الحياة ، يؤدى إلى عواقب سيئة فذلك متفق عليه من كبار علماء النفس الآن ، وقد أثبتت بحوثهم أن الطفل قبيل مرحلة البلوغ وإبانها يتعطش للتواصل أيّا كان ، ويشعر برغبة شديدة فى الاتصال بشخص آخر سواء أكان من جنسه أم من الجنس الآخر ، وأن السنوات الأربع أو الخمس التى تعقب ظهور أعراض البلوغ

(١) راجع المقال الأول فى العدد الأول من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم ص ٢٠٨ — ٢١٥

هى أنسب مراحل الحياة لتنمية شعور الجنسية الغَيْرِيَّة (١) وأنه إذا سد الطريق على هذا النمو فى تلك المرحلة فقد يندر أن يجد فرصة أخرى لسيره الطبعى .

هذه نقطة يجب أن يتنبه لها المُرَبُّونَ فى مصر وعلى الأخص المشرفون على سير التدريس ، فى المدارس الابتدائية والثانوية ، إذ أن حياة المدن عندنا وما جرينا عليه من العادات يجعلا الأولاد والبنات عرضة لخطر الجنسية المثلية (٢) .

وقد يَؤُول أمر بعضهم إلى انعكاس الطبع وإلى العادات السرية وما يصحبها من الأمراض وأحلام اليقظة واضطراب البال وإهمال العمل .

هذا إلى أن نظام الإبعاد بين الجنسين فى شكله الحاضر فى بعض بيئاتنا قد يجر إلى نتائج نفسانية سيئة يجدر بالمربين أن يتلافوها . ومن بينها تلك الصور الخيالية التى يخلقها الوهم فى عقل كل من الجنسين عن الجنس الآخر والتى تجعل الأفراد عرضة للأمراض الوجدانية والعقلية وتجعل من الصعب عليهم فيما بعد إعداد أنفسهم للحياة الجنسية المشروعة .

هذا الموضوع من الموضوعات الاجتماعية الشائكة ، والخلاف بين العلماء فى نواحيه التعليمية والنفسانية والاجتماعية كثير - وأنا أميل إلى الظن أن أوروبا وأمريكا قد جاوزتا الغاية فى إباحيتهما على حين وقفنا نحن موقف الحائر المتردد يحاول المحدثون منا أن يقذفوا بأنفسهم فى الهاوية ، ويحاول المحافظون أن يتجاهلوا خواص الطبيعة الإنسانية ومطالبها ، وبين هؤلاء وأولئك يتلمس المصلح المسلم

---

(١) و (٢) : الجنسية الغيرية والجنسية المثلية ، أو غيرية الجنس ومثلية الجنس : اصطلاحان قصدت بأولهما الظاهرة الطبعية من اتجاه الشعور الجنسى عند الذكر إلى الأنثى ، وعند الأنثى الى الذكر . وقصدت بثانيهما الظاهرة الشاذة عند بعض معكوسى الطباع من اتجاه الشعور الجنسى عند الذكر إلى مذكر وعند الانثى إلى أنثى مثلها . وعلى هذا فالشخص نفسه يوصف بأنه غيرى الجنس أو مثليه تبعاً لاتجاهه إلى الطبعى أو الشاذ من الناس . هذا والاصطلاحان فى نظرى غير منسجمين وربما وفقت أو وفق غيرى إلى العثور على خير منهما .

طريقاً للخلاص يجمع فى حدود الشرع والتقاليد بين نتائج العلم الحديث وقواعد الاجتماع والعمران .

لست أجدنى هنا فى حاجة إلى تحذير بنى قومنا من التقليد الأعمى لأوربا فيما جرت عليه من رقص وخلاعة واختلاط غير مشروع ، فذلك شر أرجو ألا نضطر يوما ما لمحاربته فى مصر - ويكفى أن يعلم المصريون أن علماء الاجتماع فى أوربا بدءوا يتلمسون طريقاً للعدول عن هذه الإباحية والرجوع إلى الحياة الطبيعية الرزينة الراجحة .

ولكن هذا لا يمنعنا أن ننتفع بتجارب القوم فى هذا الميدان فنعطى أطفالنا قسطا صالحاً من المعلومات عن الجسم ووظائفه العضوية . ونجيب عن أسئلتهم المحرجة فى صراحة وحكمة ، ونتدرج فى تزويدهم بالمعلومات الجنسية حسب سنهم وإدراكهم ، ونعلمهم ضبط النفس على قواعد الصحة والشرف لا على أساس التخويف من الشر والخطيئة فحسب ، إذ أن التربية المبنية على أساس التحذير وحده تربية ناقصة تفكك الشخصية وتجعل الشخص فى حرب دائمة مع نفسه . ويؤسفنى أن أقرر هنا أن معظم شبابنا فى البلاد الغربية يقعون فريسة لهذا المرض وأنه لا تطأ أقدامهم تلك البلاد حتى يفلت عنان أنفسهم من أيديهم وحتى ينطلق المحبوس من شهواتهم وتعلو أهواؤهم على عقولهم ويصبحوا وهم أحرى بأن يُسَمَّوْا مرضى أخلاقيين لا فسقة مذنبين . وهم فى تلك الحال على صنفين : صنف تعصف به عاصفة الشهوة ثم يعود إليه رشده فيقزع سن الندم ، ثم يعاود الخطيئة ثانية وثالثة وهكذا تستمر الحرب بينه وبين نفسه سجالا ، وصنف لاقوام لشخصيته ولا عماد لذاته وهذا تعبث به الأهواء عبث النكباء بالعود فيلقى سلاح المقاومة ويصبح أسير الشهوات .

ومنذ أشهر قمت ببحث نفسى (سيكولوجى) صغير على الأحوال الأخلاقية بين إخواننا المصريين فى انجلتره ، وكان من بين الأسئلة التى طلبت منهم الإجابة عنها أن أعطيتهم قائمة بعشر رذائل (من بينها السرقة وشرب الخمر وشهادة الزور والكذب والزنا . . . . .) ورجوت كل واحد منهم أن يرتبها حسب درجة كل

منها من الإثم والشناعة . فاتفقت كلمة معظمهم أن الزنا أقل هذه الخطايا إثما وشناعة محتجين بأن الشخص يرتكب هذا المنكر مقهورا على أمره مغلوبا على إرادته .

هذا ولنعد الآن إلى ما كنا بصدده فنقول : إن مما يساعد على تربية الابن تربية جنسية صالحة أن يكون الجو الذى ينشأ فيه جوا كله قصد فى المعاملة وتوسط بين اللين والشدة ، ومودة ورحمة بين الوالدين . فالطفل الذى ينشأ فى بيئة كلها نزاع وخصام تصبح حياته الوجدانية مزعزعة مضطربة . كذلك يحسن بالأسر أن تتزاور ليتهيأ للناشئين والناشئات فرص بريئة يتعارفون فيها ويأنس كل بالآخر تحت رعاية الوالدين وإشرافهما الحكيم .

وتستطيع المدارس الثانوية للبنين والبنات أن تسد من هذه الناحية نقصا كبيرا بأن تكثر من حفلات السمر البرىء وما يتبعها من موسيقى ومناظرات وألعاب جمعية . فمثل هذه الحفلات تخدم غرضين : الأول التعارف وتبادل الود بين أفراد الجنسين ، والثانى توجيه الشعور الجنسى وجهة سامية يجد فيها الفرد لذة نزيهة فى لحن موسيقى أو قطعة شعرية أو أنشودة وطنية أو لهو برىء أو ألعاب جمعية فكهة على نحو ما يقوم به أحداث القرى الصغيرة عندنا فى مصر . ويدخل فى هذا الباب الألعاب البدنية المحتشمة التى يشترك فى تنظيمها على نغمات الموسيقى مجموع مختلط من الأطفال مما يسمونه فى انجلترا رقص العامة أو الرقص البلدى .

هذا إلى أن الألعاب والحياة فى الهواء الطلق ، خصوصا فى جو كجو مصر الساحر ، والعناية بالفنون الجميلة ، والانشغال بالبحوث الذهنية ، وتعويد الولد والبنت التمتع باللذات البريئة ومن بينها المطالعة والأشغال اليدوية والتصوير والرسم وبناء النماذج والسباحة والتنس ، وجمع المجموعات العلمية والتاريخية ، كل هذا يوجه النشاط الفنى وجهة حميدة ، ويهيىء له مستعاً دائمة فى الحياة . فإذا حرم الفتيان هذا اندفعوا بالطبع إلى غشيان الأندية والمجالس وأماكن الكسل والخمول ففسد تيار أفكارهم وانصرفوا إلى العبث والمجون .

هذا القدر الذى أسلفته يمثل فى نظرى الوسط المقبول الذى يصح أن نتبعه دون خوف أو حذر . ويحسن هنا أن نفرق بين وجهة النظر هذه وبين المذهب (السيكولوجى) الذى يغالى فى موضوع التربية الجنسية ويريد إدخالها فى كل مرحلة من مراحل العمر ويبالغ فى خطر الجهالة بها مبالغة فاحشة ، إذ أننا إذا نظرنا إلى ماضينا وماضى من عرفنا من الناس وجدنا أن هذه الصعوبات والمخاوف كلها مبالغ فيها . وربما عدنا إلى نقد هذا المذهب فى بحث آخر ـ وحسبنا أن نربى الطفل تربية صحية صالحة ، ونشرح له من صغره أن جنسه لن يتغير وأن أولاد اليوم وبناته هم رجال المستقبل ونساؤه ، وأنه سوف لا يُربى الولد تربية البنات ، ولا البنت تربية البنين ـ وفى هذا تلاف لما يقع فيه كثير من الآباء من خلق المشاكل فى حياة الطفل إذ يظهرون أمامه الكراهة لجنسه أو يلبسونه ملابس الجنس الآخر ـ ومن هذا ما يحدث أحيانا من أن بنتا تشبه مخايلها ملامح الأولاد فيخاطبها أصدقاء الأسرة وجيرانها خطاب الولد ويكون هذا مبدأ لصعوبات كثيرة فى حياتها .

ويجب توقى المناقشات الخاصة بالجنسين أمام الأطفال وخصوصا ما تضمن منها التعريض بأن البنات دون الأولاد فى المنزلة إذ أن فى تعويد الأولاد الاعتقاد بأن البنات أضعف منهم شأنا تنشئة لهم على أن يعتبروهن موضوعات للرغبة والشهوة فحسب ، وعلى أن ينظروا إلى العلاقات الجنسية نظرة عمياء مشوهة ، وهذا النقص تئن منه الأمم المتمدينة الآن رغم محاولتها المساواة بين الرجال والنساء فى ميادين كثيرة .

أما التربية الجنسية العضوية فليس من اللازم أن يعطاها الأطفال فى المراحل الأولى من العمر ، والأفضل الانتظار حتى يبدأ الطفل من نفسه بالسؤال مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع ، وليحذر الآباء أن يجيبوا الطفل إجابة تنبه ما كمن فيه من الرغبات الجنسية ، ثم ليحذروا أن يقتنوا الصور والكتب التى تهيج فى الأطفال هذا الشعور ، وليكفوا عن أخذ أطفالهم لمشاهدة أشرطة سينمائية مبنية على الموضوعات الجنسية . وليكن للأطفال حجر خاصة ينامون فيها منعزلين

عن آبائهم ، ثم ليفرق بين البنات والأولاد فى المضاجع .

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر بعض الظواهر التى تلاحظ على البنات والأولاد فى مرحلة البلوغ ليفطن لها الآباء والمربون . فبعض البنات مثلا يظهرن بمظهر الكراهة للأنوثة ويمان إلى تقليد الأولاد خصوصا فى عاداتهم الرذيلة كالتدخين والشرب - وإذا حللنا هذه الظاهرة وجدنا أن منشأها كراهة البنت للأنوثة فى دور الطفولة وأن هذه الكراهة كانت مستورة حتى جاء دور البلوغ فكشف عنها القناع . لهذا كان من المهم أن نراقب البنات فى طور البلوغ لنرى ماذا ستكون حالهن تجاه دورهن فى الحياة المقبلة .

وقد نجد من البنات من ينصرفن إلى التفكير فى العلاقات الجنسية والانشغال بالشبان - ولذلك كثيرا مايشتجرن وأمهاتهن ويدعين أنهن مهضومات - والذنب فى هذا على الآباء فإنهم لم يعدوا بناتهم لهذه المرحلة ولم ينموا عندهن قوة الحكم وأصالة الرأى وقدر الأشياء حق قدرها .

ومعظم الأولاد فى مرحلة البلوغ يميلون إلى التشبه بالرجال فى الشجاعة والحكمة والثقة بالنفس - غير أن منهم من يهابون صعاب الحياة ويفرون من مواجهتها لفقد الثقة بأنفسهم ، وربما ظهر بعضهم بمظهر الضعف والخنوثة وقلدوا البنات فى تصرفهم كالإفراط فى التزين واستهواء الأعين .

وهنالك فريق ثالث من الأولاد يغلو فى ادعاء الرجولة والتظاهر بخصائصها فيفرط فى الشرب وفى العلاقات الجنسية ويرتكب الجرائم لالشىء سوى رغبته فى التظاهر بالرجولة والقوة .

فمن أحسن الوسائل إذن للتمهيد لمرحلة البلوغ واتقاء أخطارها أن ننمى روح الصداقة فى الأطفال ليشعروا بالود والثقة نحو رفقائهم وأعضاء أسرتهم وكل من يتصل بهم ، وأن نعودهم التعاون والاعتماد على النفس ، وأن ننمى شخصيتهم من كل ناحية من نواحيها جثمانية أو نفسانية ، وأن ننور أذهانهم بالبصر والمعرفة ونزحزحهم من دنيا الخيال والأحلام إلى دنيا الحقيقة والعمل .

الآن وقد فصلنا الكلام على مشاكل المراهقة والبلوغ من ناحية التربيتين

الشخصية والاجتماعية ، وعلى مانستطيع أن نساعد به ، بنينا وبناتنا فى كفاحهم فى أهم مرحلة من مراحل الحياة ، فلنرجع البصر على مافصلنا ، ولنجمله إجمالا يضم شتاته ، ويظهر ما انطوى فى ثناياه من بعض مقترحات حاولنا فيها تطبيق النتائج العملية على أحوالنا فى مصر .

وليسمح لى القارئ هنا أن أذكّره أن أغلب البحوث النفسية (السيكولوجية) التى أدت إلى هذه النتائج إنما أجريت على شبيبة الغرب ، وأنه يجب علينا ألا نأخذها على علاتها — وإنما على النفسانيين منا أن يُعَدِّلوها ويطبقوها أو مثيلاتها على شبيبة مصر ليخدموا العلم من جهة وليخدموا الاجتماع فى بلدهم من جهة أخرى ، ثم ليعذرنى القارئ إذ لم أستطع أن أقصر الكلام فى بعض النقط على مرحلة البلوغ فحسب ذلك لأن المعروف بين علماء النفس أن تقسيم النمو النفسانى إلى مراحل إنما يقصد منه تسهيل البحث وتحديد دائرته ، ويُبَرِّرُه أن بعض المميزات الجثمانية والنفسانية أظهر فى مرحلة منها فى مرحلة أخرى .. وأن الكائن الحىّ فى طفولته كالزهرة المقفلة كلما ترعرعت تفتحت عن سرّ جديد

وبعد فهذه خلاصة ما أسلفنا .

* * *

المشاكل الاجتماعية التى يواجهها الطفل فى المدة بين الثانية عشرة والعشرين من العمر ثلاث .

١ — أولاها الخروج من الوسط الأسرىّ إلى المحيط الاجتماعى .

٢ — ثانيتها اتخاذ فلسفة فى الحياة ، وتتناول :

ا — البحث عن النفس .

ب — البحث فى علاقة الفرد بالمجموع .

ح — البحث فى ألغاز المبدأ والمعاد .

ء — الشكوك الدينية .

هـ — الولع بالمناظرات والجدل فى الأمور المعنوية .

٣ — ثالثتها مشكلة العلاقات الجنسية وتشمل :

ا ـ مظاهر الصداقة والمحبة .
ب ـ معضلة غيرية الجنس ومثليته .
حـ ـ الاختلاط المشروع بين الجنسين .
ى ـ بعض ظواهر الشذوذ فى الأولاد والبنات .

* * *

وأما تربيتنا فى دور البلوغ فيجب أن ترمى إلى انتاج شباب كفء تتجلى كفاءته فى :

١ ـ الاستقلال الاقتصادى بأن يربى الولد على أن يقوم بشئون نفسه ونفقات عيشه ، وتربى البنت على أن تقوم بدورها فى بناء الأسرة .

٢ ـ الحرية الذهنية وذلك بأن يُكوِّن البالغ آراءه الخاصة ، ويشق لنفسه طريقاً فى الحياة ، وألا يعتمد فى مهام أموره على آراء الآخرين ، وألا يكون تحت رحمة لومهم أو استحسانهم .

٣ ـ النضج الوجدانى وذلك بأن ينشأ الطفل على الاحتمال وعدم الشكوى وعلى الاستجابة لكل مؤثر بما يناسبه ، والقدرة على تصريف وجداناته حسب إرادته .

وأما الخطى التى نحن حريصون أن نترسمها فهى :

(١) نظر المنزل والمدرسة إلى الطفل لا على أنه مخلوق يُحكم بل على أنه فرد مستقل ينتمى إلى نفسه ووطنه والمستقبل الذى ينتظره ، وتشجيع الطفل على القيام بالمسئوليات وعلى الرحلات والأسفار وعلى العمل الحر وكسب العيش فى أوقات فراغه من الدراسة .

(٢) تنبُّه المدرسة إلى أن وظيفتها ليست التعليم وإنما هى تربية الشخصية فى نواحيها الجسمية والذهنية والعاطفية والخلقية ، أو بعبارة أجمع إعداد الطفل للحياة .

(٣) الإكثار من المكتبات العامة وتزويد الأطفال بالكتب والروايات التى تبعث فيهم الشعور بالنبل والتطلع إلى المجد ـ وإخراج أشرطة سينمائية تعرض

على الأطفال حياة أبطال الاسلام وزعماء التاريخ المصرى .

(٤) دراسة (سيكولوجى) الجنس ومساعدة الأطفال على إنماء شعور الجنسية الغيرية والتدرج فى تزويدهم بالمعلومات الجنسية حسب سنهم وإدراكهم ، والترفق فى معالجة شذوذهم بأحدث الطرق (السيكولوجية) ، والإكثار من عدد الإخصائيين النفسانيين والانتفاع بخبرتهم فى دراسة الظواهر الاجتماعية وفى مساعدة البالغين على مواجهة صعاب الحياة .

(٥) تنظيم المحاضرات العامة فى الفلسفة والاجتماع وأصول الدين ، واستخدام المذياع فى نشر الثقافة الاجتماعية والتربية الوطنية ، وإحياء التقاليد الدينية فى المدارس والكليات ، وإنشاء عصبة للمتكلمين باللغة العربية الفصحى ، وبناء التعليم فى جميع مراحله على أساس ثقافة وطنية واحدة توحد فى الأمة طرق التفكير وأسلوب الحياة وتوجه جهود الشعب إلى أشرف الغايات ؟

محمد خلف الله